عشـرة

عبدالحكيم اوكفيل

كما كلّ يوم، أستيقظ باكرا مع أذان الفجر، أصلّي و أتمّ الصّبح جماعة في المسجد ثمّ أعود إلى المنزل، و أنا صاعد إليه في ظلمة شبه حالكة يُهيّأ لي صوت أسمعه، دائما أسمعه، صوت ناعم، لكنّه بعيد، صوت امرأة دون شكّ، ألتفت، أبحث عن مصدره، أستشفّ صاحبته فأقلّب بصري الذي لا يكاد يعي نورا بين الجدران المشقوقة ، جدران انسلخ جلدها عن عظمها، مهلهلة تشتكي ثقل الأزمان، بين سوادها السّاقط على الأدراج و الوسخ بين زوايا كلّ طابق فيها، لم أجد بعد من أن يأتي الصّوت الغريب، أدخل منزلي مسائلا نفسي: أكان ما سمعته حقيقة أم وحي الخيال ؟ في الأول لم أُلق للأمر بال.

أدخل منزلي فأجد زوجتي قد حضّرت لي القهوة مع ما حضّرته من حلويات، أجلس معها و أحتسيها سريعا حتّى لا تفوتني الحافلة الوحيدة التي تنقلني لمقرّ عملي، لم أجلس يوما مع زوجتي كما يفعل الأزواج، التهمني العمل و تقاسمتني المشاكل، حتى صرنا كالغريبين

في بيتنا، لكنّها تتفهّم، المسكينة تصبر، تبتسم و تقول: لا بأس يا عزيزي، سيكون لنا وقت نبقى فيه مع بعضنا كما كنّا في أيّام زواجنا الأولى، لكن شيئا من ذلك لم يكن، يوما بعد يوم تزيد البرودة و يزيد البعد... تمكّنت منا الحياة ... شغلتنا عن بعضنا.

لم يرزقنا الله بالأطفال، فصار البيت كالمنزل المهجور، يسرح فيه ظلاّن لا يدريان ماذا يفعلان، يمثّلان السّعادة و يتقمّصان أدوارا فرضتها عليهما الحياة، حياة كالممات.

يتملّكنا الحزن و يطغى يوما بعد يوم، حتى يستعمر أرواحنا و يسكن فيها.

حاولت يوما أن أغيّر الجوّ و ألطّفه، فلم أجد سوى قصّة الصّوت الذي أسمعه في العمارة كلّ يوم حين عودتي من المسجد، رويتُ لها القصّة فضحكت ساخرة ... على الأقل ضحكت.

تكرّر نفس الأمر في اليوم الموالي، لكن هذه المرّة صار الصّوت أقرب، أكثر وضوحا، صوت امرأة نعم، تأكّدت من أنّه صوت امرأة، كانت تنادي، بنفس النّعومة و الغموض، بصدى صوت آت من أعماق

المجهول، بكلام غير مفهوم، لكنّه مسموع، على الأقلّ أسمعه، هو حقيقة و ليس محض خيال.

كان همّي الوحيد أن أصل بسرعة إلى مخبئي المألوف، زاد الخوف و ارتعبت، فصرت أسرع في الصّعود و النّزول كلّما ذهبت لأصلي، و في حالات لا أذهب، يتكرّر الأمر في الوقت نفسه و ليس في أي وقت، و في كلّ مرّة أحسّ بالصّوت قادم نحوي، دون أن أرى أحدا قبالتي.

تكلّمت مع زوجتي مرّة ثانية عن الصّوت الغريب، هذه المرّة لم تضحك، لأنّ الأمر لم يصر مضحكا، خصوصا و أنّها لم ترني بمثل هاته الحالة من الشّحوب و الخوف من قبل، استعجبت و استغربت، ثمّ سألتني أكثر ففسّرت لها الأمر من الألف إلى الياء، و بعد استبعاد إمكانية أن يكون مصدر الصّوت أحد الجيران، طالبتني بالهدوء و الاستغفار، و قراءة القرآن كلّ مرّة أنزل أو أصعد فيها العمارة، اعتقدَت أنّ الصّوت صوت جِنيّ، يريد أذيّتي أو في أحسن الحالات إرعابي، ففكّرت بما قالت و ظننت الأمر كما ظنّت، التزمتُ النّصيحة و جعلت القرآن ظِلّي و رفيقي، فتغيّر الأمر إلى ما لم أحسب له حسابا.

جرّبت مرّة الخروج قُبيل الصّبح، ولم أسمع الصّوت ذاك لا في نزولي و لا في صعودي، فاستبشرت استبشارا عادت معه الرّوح إلى حاويها، قلت في نفسي: لربّما سيعود غدا، لكنّ الأمر لم يكن لا في الغد و لا بعده، أخيرا تخلّصتُ منه، كانت فرحتي عارمة، لا توصف إلاّ أنّ زوجتي نبّهتني إلى أمر غير طبيعيّ يحصل في المنزل: و هو بعد كلّ يوم من توقّف الصّوت كانت تفقد شيئا ثمينا في البيت، فالأوّل كان طاقمها الذّهبيّ الثّمين، و الثّاني ساعتها التي أهديتها لها في عيد زواجنا الأوّل، هكذا دون سبب، فعاد الخوف يحتويني مرّة أخرى و قلت: لا تقولي لي أنّ الجنيّ هنا في المنزل، أمسكت زوجتي عن الكلام و اكتفت بالصّمت، أدركت حينها أنّ ما لا يُحمد عقباه قادم.

تطوّرت الأمور و اختفت مزيد من الأشياء في المنزل: عطرها الفرنسيّ، ثوبها المفضّل الإيطاليّ، مشطها العاجيّ، وشاحها الحريريّ، صورتنا مع بعض، و حتّى هاتفها النقّال، لم نجد لهاته الأشياء أثرا رغم البحث و الاستمرار فيه، زاد حزن و أسى زوجتي، و معه زاد الخوف ممّا يحصل، كذلك الأمر بالنّسبة لي، لكن السّؤال الذي لم يفارقني هو:

لماذا فقدنا فقط أشياءً تملكها زوجتي ؟ أيمكن أن يكون هذا الجنيّ ... لا لا يمكن.

زاد اكتئابي و معه تساؤلاتي، و كأن الحياة لم تكتفي بتعذيبي فزادتني هذا العذاب، سألت الجيران أخيرا عن هذا الصّوت إن سمعوه، فتعجّب البعض من سؤالي و ظنّ آخرون أنّني جُننت، لم أشأ أن أرويَ لهم ما حصل في المنزل، فمهما كان ذاك سرّ بيني و بين زوجتي.

خشيت أن تتأزّم الأمور أكثر، لكنّي لم أجد غير الحلّ الذي اقترحته زوجتي: أن آتي براقٍ يشفينا من هذه العلّة قبل فوات الأوان، وجّهتني إلى أحدهم تعرفه من روايات النّسوة، يُقال له "برهان"، برهان هذا راقٍ مشهور على حدّ علمهنّ، تمكّن من فكّ عقد السّحر و طرد الجان و تمكّن من الرّقية الشّرعيّة رغم صغر سنّه، فما إن أكملت كلامها حتى جهّزت نفسي و توجّهت إلى بيته الذي كان غير بعيد عن حيِّنا.

دعوته فأجاب الدّعوة بابتسامة مشرقة، ابتسامة أعادت ليَ الأمل المفقود، وصلنا إلى عمارتنا بعد صلاة العِشاء، فقد طلب منّي أن أبقى معه في المسجد بعد المغرب ليشرح لي الوضع الذي أنا فيه و كيفيّة معالجة المشكل، صعدنا و إذا به يتمتم و يُبسمل، في تلك الظّلمة لمحته يلتفت يمينا و شمالا، كالحائر، كالضّائع، كمن لا حول له و لا قوّة، سألني بصوت يرتعش:

" ذكّرني ... كم من شيء أضعتماه ؟".

" ثمانية أشياء، كلّها ملك زوجتي".

توقّف في مكانه و لم يزد، استغربت الأمر، فسألته:

" ما بك ؟ ألن تأتي ؟ منزلي في الطّابق الثّالث فوق ...".

" كلاّ لن آتيَ معك ...".

" لماذا ؟".

و قبل أن يردّ رأيته ينغمس في ظلمات أتت من خلف و خطفته إلى الأسفل، و هو يحاول الصّراخ و لا يستطيع، بقيت في مكاني، بصري شاخص نحوه، أبكمني الخوف و لم أدر ماذا أفعل، تركت يده التي

كانت تحاول الإمساك بي لكي تخرج من وحل السّواد و صعدت هاربا إلى المنزل، كنت في الثّاني و حاولت أن أصرخ بدوري لكنّي لم أستطع، و كأنّ يدا كانت تغلق على فمي و تمنع خروج الصّوت من جوفي، و قبل أن أصل الثّالث شعرت بثقل غريب في جسدي، ثقل يرمي بنفسه على رجليّ فجأة، و كأنّ أحدهم يجذبني ليعود بي إلى الخلف، استنجدت و حاولت الصّراخ دون فائدة، لم يخرج الجيران رغم الجلبة، لم أفهم ماذا يحصل لي حتّى كسر الصّوت ذاك جدار الصّمت قائلا:

" عشرة ... عشرة ... عشرة ...".

هو ... نعم هو ... نفس صوت المرأة تلك ...

عشرة ؟ ماذا تقصدين ؟

مرّة أخرى يكرّر، لكن الصّوت أقرب، أكثر وضوحا و أكثر حدّة:

" عشرة ... عشرة ... عشرة ...".

أيمكن أن يكون الراقي الذي التهمته الظّلمات التّاسع و أنا العاشر ؟ أيمكن أن أضيع في اللاشيء كما ضاعت الأشياء تلك ؟

فهمت الآن ... أنا الموالي، نعم أنا الموالي، ضاعت ثمانية أشياء تربطني بزوجتي، و ضاع الذي حسبناه المنقذ، و سأضيع أنا أيضا، و سأكون العاشر ...

بدأت بالصّراخ، لكن هذه المرة خرج الجيران جميعا، صار صوتي مسموعا، فرحت لخروجهم، اتّجهت لكلّ واحد فيهم أشتكي خوفي، أروي له بسرعة ما حصل، لم أجد لجسدي ثقلا، صار فجأة خفيفا، يرى فيَّ جيراني و يتعجّبون لحالي، يسأل بعضهم بعضا:

" ماذا حصل له ؟ لماذا يصرخ ؟ أبِه شيء ؟".

ماذا ؟ ألم يسمعوا بعد ذاك الصّوت الرّهيب ؟ أبِكم صمم أم ماذا؟

تأتي زوجتي تمشي على استحياء، فتقول:

" دعوه ... فقد جُنّ المسكين".

تبتسم ابتسامة الخبيث الماكر، لم أفهم ماذا يحصل...

" ماذا تقولين ؟".

انتابني الدُّوار حينها، لم أستطع التّحمُّل، سقطت على الأرض، غير مُدرك لما يجري حولي...

استيقظت، و إذا بي على سرير أبيض، في مكان أبيض، بياض غريب، مخيف كما سواد تلك العمارة الملعونة، لم أستطع التّحرك، لم أتمكّن من تحريك شفتيّ ...

" لا تحاول يا عزيزي، فأنت مشلول ...".

جاهدت نفسي لأدير مقلة عيني عن اليمين، و إذا بها زوجتي".

" أنت العاشر يا زوجي العزيز، بعدما تخلّصت من كلّ ما يجمعني بك، أكملت بالرّاقي الذي أحضرته، لم يكن المسكين ضمن خطّتي، لكنّ الأحداث تسارعت و كنت مضطرّة...".

مُضطرّة ؟ عن ماذا تتحدّث ؟

تبتسم ابتسامة المكر و الشّر، تقترب أكثر منّي فتقول:

" أنت الآن في المشفى، لا حول لك و لا قوّة، بسبب عجزك و قلّة حيلتك عادت أملاكك إليّ، كلّ ما تملكه صار لي وحدي ... قصّة الجنيّ، هل صدّقتها؟".

إذن كانت مجرّد تمثيليّة ...

" ذاك صوتي أنا، و أنت كالمغفّل صدّقت كلّ ما قلته لك، لقد سلبتني شبابي و أنوثتي دون مقابل، أهديتك عذريّتي لتجعلني مقبرة خاوية، اليوم أنت مشلول لا تقوى حتّى على الكلام".

لم أستطع تحمّل وقع كلماتها الجارحة، القاتلة، فسالت دموعي من عينيّ المفتوحتين شقّت بها وجنتيّ المتيبّستين ...

" أنت تبكي ؟ وا حسرتاه عليك، لم يبق فيك شيء يصلُح ...".

تضع يدها في جيب معطفها و تخرج شيئا منه ...

" أُنظر جيّدا إلى هذه، حاوٍ زجاجيّ فيه عين الرّاقي الذي أتيت به، أجهزت عليه في تلك الظلمة و أخفيت جثّته سريعا في مكان لا يعرفه أحد، في العشر أيّام التي بقيت فيها هنا، قطّعته إربا، تناولت بعضها و رميت الباقي للكلاب الضّالّة، بعدها أحرقت بقاياه حتّى صارت رمادا، لكن قبل أن أفعل ذلك اقتلعت عينه اليمنى و حفظتها في الثلاّجة ...".

مستحيل، كيف فعلت ذلك ؟ لا أصدّق ...

" كان الأمر رائعا و أنا أشقّ لحمه و أسمع صوت سيلان الدّم بين تلافيف عضلاته، نغماته و هو يتقاطر على الأرض، ذوق اللّحم النيّئ لا يزال في فمي، أنت لا تدرك جمال ما عشته، روعة ما جرّبته ...".

مُحال أن يكون ما تقولينه حقيقة، أنت مجنونة، مريضة نفسيّا، لستِ إنسانا...

لكن من يسمع كلمات غير نفسي المحطّمة، عذاب على عذاب.

تضحك ضحكا متقطّعا، تفتح الحاوي الزّجاجي، تأخذ العين و تضعها في فمها، تمضغها مستمتعة بذوقها، و أنا أرى فيها غير مصدّق.

تقف و تأخذ برأسي، تفتح فمي جيّدا حتّى أحسست أنّها ستقسم فكّي نِصفين، ثمّ تبصق فيه من عُلوّ خلاصة ما مضغته، فانزلق ما كان من عجينة و لعاب في حلقي، اقشعرّ بدني و استفرغت حتّى أحسست أنّ قلبي سينفذ من فمي، فصار الأبيض أخضرا، و الخوف رعبا، و الحقيقة كابوسا ...

تضحك مرّة أخرى، تعتدل في وقفتها، تأخذ حقيبة اليد ثمّ تقول:

" أتركك الآن تتعذّب يا زوجي العزيز، ففي الحقيقة لا تستحقّ سِواه ".

تتوجّه نحو باب الغرفة، تفتحه و تهمّ بالخروج و قبل اختفائها:

" تذكّر ... أنت الموالي ... عشرة ... عشرة ... عشرة ...".

يُغلق الباب عليّ، و أنا وحيد في غرفة مضيئة مظلمة، أعيش كوابيس الحقيقة، أبكي بكاء من لا حيلة له، و أرجو الموت كمن يرجو الحياة ...

أتدرون من يكتب ؟ أتدرون من يروي؟ أنا "مَنيّة" زوجة "غافِل" ...

قصّتنا عبرة لمن يعتبر، فلا تأمَن النّاس، قد يكون أقربهم أغدرهم...

المسكين عاش مصدوما، و مات مرعوبا، أما أنا فسأعود و أكمل ما بقي، فمُهمّتي لم تنتهي، لأنّك المُوالي...